ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 18 نوفمبر 2016

الجماعة والمجتمع حسب «تونيس»

إميل دوركهايم
ترجمة: محمد الإدريسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

الجماعة والمجتمع حسب «تونيس»

إميل دوركهايم

ترجمة: **محمد الإدريسي**

الملخص

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، عرفت الساحة السوسيولوجيَّة الأوروبيَّة نقاشاً إبستيمولوجياً بين التقليدين الفرنسي (ممثلاً في إميل دوركهايم)، والألماني (ممثلاً في فردناند تونيس)، تركّز حول قضايا المعرفة والمجتمع، من خلال سلسلة من المقالات والمراجعات النقديَّة، الأمر الذي ساهم في تعزيز الحوار الإبستيمولوجي والنقدي بين قطبين كلاسيكيين ومؤسسين للسوسيولوجيا. يظهر النص الذي بين أيدينا (الجماعة والمجتمع حسب تونيس) قوة العدَّة المنهجيَّة والنظريَّة والمفهوميَّة التي تميز بها كلُّ عالم اجتماع على حدة: تأثير الفلسفة والسيكولوجيا على الكتابات السوسيولوجيَّة لتونيس، وتأثير النفحة التطوريَّة-السبنسريَّة على تحليلات إميل دوركهايم، كلُّ ذلك في إطار البحث عن تفسيرات سوسيولوجيَّة وعلميَّة لتطور المجتمعات المعاصرة.

مع الأسف، لا يتمُّ استحضار هذا المقال -إضافة إلى المراجعات النقديَّة الأخرى للرجلين- في سياق تحليل العلاقة بين السوسيولوجيَّة الفرنسيَّة والسوسيولوجيَّة الألمانيَّة في مرحلة التأسيس من جهة، والعلاقة التي تجمع بين مفهومي الجماعة والمجتمع في السياقين الفرنسي والألماني، ضمن التقليد السوسيولوجي العربي من جهة أخرى. والغريب في الأمر أنَّ العديد من المراجعات النقديَّة التي نشرها تونيس رداً على تحليلات دوركهايم وكتبه ظلَّت غير معروفة إلى حد كبير في فرنسا أيضاً، حيث لم تترجم إلى اللغة الفرنسيَّة إلا سنة 2013 م من طرف عالمة الاجتماع الفرنسيَّة سيلفي ميزير. واليوم، ننشر هذه الترجمة العربيَّة لنص دوركهايم أملاً في تنمية الاهتمام السوسيولوجي بتعريب وترجمة النصوص المؤسسة ـ خاصَّة صنف المقالات والمراجعات النقديَّة- من أجل بناء مجتمع معرفة منفتح على النصوص المؤسسة في سياق تزايد حدَّة الأزمات المنهجيَّة والنظريَّة ضمن البراديغم السوسيولوجي المعاصر.

-1-

على الرغم من أنَّ هذا المؤلف ـ في المقام الأول- دراسة في العلوم الاجتماعيَّة، حيث تتشابك طبيعة آرائه وتختلف، فهو في الوقت نفسه دراسة سوسيولوجيَّة تحمل في طياتها أبعاداً فلسفيَّة وسيكولوجيَّة. نجد أنَّ شوبنهاور وكارل ماركس وكانط وسومن ماين والتطوريين، يلهمون ـ في وقت واحد أو بالتتابع ـ المؤلف، نجد أيضاً خلاصة انتقائيَّة، تعزّز مشقة قراءة هذا الكتاب ـ وهو أمر مؤسف ـ نظراً لوجود أفكار مثيرة للاهتمام، ونحن مستعدون لكشفها. سنترك كلَّ ما هو متعلق بالفلسفة العامة، و«نحتفظ» بكلّ ما يهمُّ -أساساً- السوسيولوجي.[1]

-2-

كما يشير العنوان، اقترح المؤلف تحليل مفهومين أساسيين: ما يهمُّ «Gemeinschaft» (الجماعة)، وما يهمُّ «Gesellschaft» (المجتمع). إنَّهما نمطا التجمُّع الملاحظان لدى الإنسانيَّة، وشكلا الحياة الاجتماعيَّة، وهدف هذه الدراسة التمييز وتحديد الصلة بينهما.

-3-

«Gemeinschaft» هي الجماعة، التي تشكّل وحدة مطلقة تشمل التمايز بين أجزائها، جماعة جديرة بهذا الاسم وليست مجموعة، وحتى منظمة ـ أفراد مختلفين تجمعهم علاقة مع بعضهم بعضاً ـ إنَّها جمع غامض ومدمج في إطار حركيَّة جماعيَّة فقط، يقوده الجمع نفسه أو أحد العناصر المنتدبة لتمثيله. إنَّها قوة من الوعي الموحَّد الشكل، بحيث لا يمكن أن يتحرك باستقلال عن بعضه بعضاً. هذه هي الجماعة إن صحَّ التعبير، حيث جعلتها المشاعة أعلى درجة من الكمال الموجود، من خلال امتلاكها لمجال فعلها الخاص ضمن غياب للأجزاء.

-4-

إنَّ ما يبقي الأفراد متحدين، في هذه الحال، هو ما يدعوه المؤلف «Verständnis» (التوافق). إنَّه الاتفاق الصامت والعفوي في إطار «وعي جمعي» يوحد شعورهم وتفكيرهم، يذوبون في وحدة بين بعضهم بعضاً، يتشاركون بشكل جماعي كلَّ انطباعاتهم، أفراحهم وأحزانهم، إنَّه في كلمة واحدة: الانسجام التام. لا ينتج هذا

1. Emile Durkheim, « Communauté et société selon Tönnies », Revue Philosophique (1889), XXVII, pp. 416-422.

أعيد نشره في

Emile Durkheim, « Communauté et société selon Tönnies », Sociologie [En ligne], N°2, vol. 4 | 2013, mis en ligne le 25 septembre 2013, consulté le 10 novembre 2016. URL : http://sociologie.revues.org/1820

الانسجام عن اتفاق مسبق، أو تعاقد نوقشت بنوده الأساس مسبقاً، لكن تنتجه الضرورة الطبيعيَّة للأشياء، الحالة الروحيَّة والذهنيَّة. عندما تكون الظروف مواتية وتزرع بذوره، ينمو ويتطور كـ«نبات» عفوي.

-5-

ولكي يظل الوعي الجمعي متمازجاً ومتحداً، وتتشارك فيه حياة ووحدة الآخرين الذين يجب أن يكونوا من الطبيعة نفسها، أو على الأقل يوجد تشابه كبير فيما بينهم، لهذا فجماعة الدم هي المرجع الأساس لكلّ أفراد الجماعة. وبعبارة أخرى، إنَّها «العائلة»، والعائلة في الوقت نفسه جرثومة منها ولد كلُّ أفراد الجماعة لكونها مصدر الدستور الفيزيولوجي للإنسان، والشيء نفسه ينطبق على «Gemeinschaft». لهذا إذاً، تظلُّ الأصول جدّ طبيعيَّة، إنَّها مجموعة عضويَّة كما أنَّها «متنوعة»، وتختلف جذرياً من حيث مكوناتها عن «Gesellschaft».

-6-

إنَّ العائلة هي الشكل الأكثر كمالاً للجماعة، وليست الوحيدة. إنَّ الأسرة تخفي خصائصها المميزة، وعناصرها وأنماط ترتيبها المختلفة، والتي تفرز بعد ذلك تنوُّع المجموعات. والتشابه العضوي ليس الرابط الوحيد بين الأعضاء داخل العائلة نفسها. إنَّها تؤسّس لوحدة متكاملة ـ على الأقل بشكل عام- بين الأزواج، والتي لا توجد دائماً بين الأخوة والأخوات، وهو ما يضمن تماسك المجتمع المحلي، إضافة إلى كون زواج الأقارب يضمن هو الآخر عيش الأفراد مع بعضهم بعضاً داخل الفضاء نفسه، إنَّه أيضاً تجمُّع الذكريات وأساس الوجود المشترك. يتمُّ تطوير هذين الرابطين الاجتماعيين: حينما يضعف الأول يحلُّ محله الثاني، في هذه الحالة كلُّ واحد منهما يشكّل نوعاً مشتركاً من «Gemeinschaft». على سبيل المثال أثناء وجود أسرة جديدة، يتمُّ تجاوز الانقسام وتتوحَّد الأسرة [الأولى] بقوة في مواجهة الأسرة الجديدة: إذاً، نجد أنَّه ينتج ما يسمّيه «سومير ماين» «Sumner Maine» بـ**جماعة القرية**. وعلى الرغم من كون هذا النوع من الجماعات يجد تجليه الأساسي داخل القرية أكثر من أيّ مكان أخر، إلا أننا نجده داخل المدينة، لكن شريطة ألا يتجاوز مجموعة من الأبعاد وألا يصبح كمدن اليوم، لأنَّه داخل تجمُّع الذكريات والتملك تولد «الأخويَّة»، والمجموعات السياسيَّة والاقتصاديَّة والدينيَّة، وحيث توجد، توحد المشتركين في الوظائف نفسها، أو المعتقدات نفسها، ويشعرون بالاحتياجات نفسها، ... إلخ.

-7-

لكن ضمن هذه الأشكال المختلفة، يُظهر «Gemeinschaft» دائماً الخصائص العامة نفسها. لذا أدرجنا الأكثر أهميَّة، وتجاوزنا الأخرى.

-8-

في أي مجتمع حيث الأفراد لا يتمايزون عن بعضهم بعضاً إلا في الخصائص الطبيعيَّة للتجمع، كلُّ مجموعة تعمل بشكل جماعي و«تمرح» بشكل جماعي، وبما أنَّه لا وجود للملكيَّة الخاصة بالمعنى الحديث، بل فقط ملكية الحيازة (Besitz) والملكيَّة الجماعيَّة، وبالتالي هناك حضور قوي لنمط التبادل. إنَّه التبادل بين أسرتين أو أكثر مستقلتين لذاتهما - صحيح بدون عناء- لكن ليس بين كلِّ أفراد العائلة، ولا يتمُّ تعميم الأشياء المشتركة المتميزة، لكنَّها لا تظلُّ في المتناول ومرتبطة بالمجموعة. والخاصيَّة المميزة أيضاً هي الارتباط بالأرض، حيث الخدمات المشتركة غير خاضعة «للتنقيد»، بمعنى تباع «مقابل التعايش»، الكلُّ يعمل، ليس انتقاماً، وإنَّما لكونها وظيفة طبيعيَّة، ويحصلون في المقابل على حصة من المرح والفرح المحدود، ليس وفق قانون العرض والطلب، لكن وفق قانون التقاليد، حيث يخضع شعور الجماعة بشكل عام لإرادة الزعيم.

-9-

وحينما لا يوجد هناك تبادل، يمكن أن يكون هناك تعاقد. العقد يشمل فردين حاضرين، كلٌّ بإرادته واهتماماته ونطاق فعله [الذهني والموضوعي]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يناقش الموضوع بين أفراد الجماعة. الآن وقد لاحظنا أنَّ هذه الشروط لا تتحقق ضمن «Gemeinschaft» الخالصة. ليس هناك وجود للحركيَّات، لا تغيير في توزيع الأدوار، لأنَّه لا وجود عملياً للأدوار. إنَّ حياة الجماعة ليست محصلة مجموع إرادات الأفراد، بل تتمُّ تغذيتها من العادات والأعراف والتقاليد. بين كلمة «وضع» وكلمة «عقد» هناك ـ بشكل عام- مختلف العلاقات النابعة عن اتفاق، والمؤلف يستخدم التعبير الأول لتوصيف «Gemeinschaft».

-10-

لكنَّنا نعرف نمطاً آخر من التجمع: إنَّه ما يمكن أن نلاحظه في المدن الكبرى والمجتمعات الكبرى المعاصرة، ما يمكن أن نلاحظه في حالة من «النقاء»، وهو ما يدعوه السيد «تونيس» «Tönnies» بـ «Gesellschaft».

-11-

يضمُّ «Gesellschaft» حلقة من الأفراد، كما هو الشأن في «Gemeinschaft»، يعيشون في سلام مع بعضهم بعضاً، وبدل أن يكونوا موحَّدين بشكل أساسي، فهم على العكس من ذلك منفصلون، بينما في «Gemeinschaft» يظلُّ الأفراد متَّحدين رغم كلّ العوائق والحواجز، فهم متمايزون رغم كلّ الروابط،

وبالتالي لا وجود لأنشطة أوليَّة قويَّة وضروريَّة تسلي وتمتع الوحدة الموجودة، وتعبر عن إرادة وروح هذه الوحدة...، وإنَّما كلٌّ مع ذاته، في حالة من العداء وجهاً لوجه مع الآخرين. يحدّد تنوع مجالات وحقول الأنشطة والقوة بشكل واضح الوحدة مع الآخرين، وتحدّ من كلِّ تداخل وتواصل بين الأفراد...، لا أحد سيقدِّم شيئاً للغير دون تبادل مماثل أو مكافأة تعادل ما تمَّ القيام به أو تقديمه...، فقط احتماليَّة الربح والكسب قد تجلب التخلص ممَّا هو مملوك».

-12-

كما نرى على نقيض «Gemeinschaft»، اختلاف وتعارض الضمائر وحداثة عهد التعايش جنباً إلى جنب فيما بينها. في حين أنَّ الشكل الأول للمجتمع، هو ما فضَّل وصفه «هيجل» «Hegel» على سبيل المثال، والمعروف في النظرية الثانية «لبنثام» «Bentham». وفقاً للمؤلف، فإنَّ هذين النوعين من الحياة الاجتماعية، اللذين يقدمان ويشكلان أنفسهما كحالة خاصة، وجدا تطورهما في عمق التاريخ. الثاني ولد من الأول: «Gesellschaft» من «Gemeinschaft». فكيف حدث إذاً هذا التناسل؟

لأنَّ تغلغل الوعي الجمعي [المشترك] للجماعة، كان ممكناً في نطاق مجموعات ممتدَّة، والذي لا نعرفه بدقة إلا في ظلّ هذا الشرط. وبالموازاة، أصبحت التجمعات الاجتماعيَّة أكبر حجماً، والمجتمع أكثر حاجة للفرد، لذلك تحرَّر هذا الأخير بشكل طبيعي، و«الفرجة» التي نشهدها حالياً برهان على ذلك. إنَّ هذا التحرُّر تمَّ بشكل تدريجي -تمتدُّ بداياته إلى ماضينا- ولا أحد يمكن أن يعتقد أنَّنا تجاوزنا الماضي وأنَّنا النتيجة الأخيرة والنهائيَّة.

-13-

هكذا، ففي حين كان سابقاً الكلُّ يوجد قبل أن يعرف دوره، الآن تعطى الأدوار قبل أن يوجد الأفراد، ولا تشكل إلا عبر تجاورهم. لذلك، ففي أن تكون «Gemeinschaft» عضوية، فإنَّ «Gesellschaft» ميكانيكي. هذا هو الفرق الجوهري للتمييز بينهما.

-14-

كما أنَّه ليس بالضرورة للاستدلال بالمحددات الرئيسة «Gesellschaft» لإعطاء القارئ فكرة أوليَّة [عنه]. إنَّه يوازي كثيراً المجتمع الصناعي لـ«سبنسر» «Spencer». إنَّه عهد الفردانيَّة بتداوليتها العامَّة. وحلَّ التعاقد محل نظام الوضعيَّة. وأيضاً تمَّ استيعاب الإرادات المشتركة في إرادة جماعيَّة، ويمكن القول أيضاً، عسكرة الوحدات في مواجهة بعضها بعضاً، لإتمام استقلالها. لا شيء يمكن أن يضع حداً لهذه

الحرب سوى معاهدة سلام، توقع بمعرفة وإدراك الأسباب، بمعنى اتفاق أو تعاقد. نجد أيضاً أنَّ الحق الطبيعي واللاواعي «Gemeinschaft» تمَّ استبداله بحق وضعي تعاقدي. واستبدلت المعتقدات المؤطرة بقوة وضغط التقاليد، بالتعبير وحريَّة الفكر والعلم وظهور الملكيَّة الفرديَّة والتبادلات النقديَّة. هذا هو عصر التجارة والصناعة، وبخاصَّة الصناعات الثقيلة، والمدن الكبرى والتبادلات الحرَّة والكوسموبوليانيَّة. ونرى باختصار المجتمع الذي عاصره السيد تونيس والمجتمع المركزي للاشتراكيَّة. في الواقع، غالباً ما يستعير المؤلف من «كارل ماركس» «Karl Marx» و«لاسال» «Lassalle» الألوان الداكنة لكلِّ ما يقدمه لنا.

-15-

بالنسبة إليهم، وجود مجتمع كهذا شبه مستحيل دون قوَّة كبرى للدولة. فوجود الدولة ضروري لضمان الوفاء بالاتفاقات والالتزامات الفرديَّة، ومعاقبة كلّ من يخرق الحق التعاقدي ويضرُّ بالمصالح العامَّة للمجتمع، ويجب على الدولة أن تكون قويَّة لاحتواء كلّ هذه الإرادات الفرديَّة، وكلّ هذه المصالح الفرديَّة التي لا يربط أي شيء بين بعضها بعضاً، وكلُّ هذه الشهوات المندفعة. يمكن الآن أن نفهم دلالة العنوان الفرعي للكتاب: «Abhandlung des Communismus und Socialismus als empirische Culturformen» (دراسة حول الشيوعيَّة والاشتراكيَّة باعتبارها تجربة (تاريخيَّة) للحضارة). الشيوعيَّة هي نظام «Gemeinschaft»، إنَّها طبعاً ليست مفاهيم إيديولوجيَّة، يطمح إلى تحقيقها في المستقبل، لكنَّها حقائق واقعيَّة سيكون إنتاجها [ووصولها] في المستقبل أمراً محتوماً. وكما أنَّ «Gesellschaft» ولدت من «Gemeinschaft»، فإنَّ الاشتراكيَّة ولدت من الشيوعيَّة وحلت محلها.

-16-

لكن، في حين أنَّ الاشتراكيين يجعلون نظام «تفاضلهم» النموذج المثالي للتقدم، يرى السيد تونيس أنَّها اللحظة الفاصلة في مسار التطور الاجتماعي، الذي لا مفرَّ منه كحلٍّ نهائي، حتى أنَّه يتحدث -دون حماسة لكن بنزاهة- عن كونها ظاهرة طبيعيَّة وضروريَّة، فمن الحتمي أنَّ الدولة تتشكّل وتتطوَّر لكي يستمر «Gesellschaft»، لكن من ناحية أخرى لا يمكن أن يستمر لأجل غير مسمى. يستند الضغط على إكراهات مصطنعة حيث تجتمع كلُّ التناقضات الداخليَّة، وكلُّ الانقسامات التي تخترق المجتمع، وينفجر في نهاية المطاف عاجلاً أو آجلاً. ليس هناك قوة حقيقيَّة سوى داخل التوازن حيث تحضر الأفكار المشتركة، والمصالح المشتركة. أو داخل توازن «Gemeinschaft»، يضعف عدد كبير من هذه الأفكار، وتضعف أهميَّة هذه المصالح تدريجياً. إنَّ الحرب التي يختفي في إطارها المجتمع لا بدَّ لها أن تنتهي في يوم ما، ولا تنتج آثارها الطبيعيَّة، عبر انهيار الروابط الاجتماعيَّة، وانهيار الجسم الاجتماعي. أيضاً، تتضمن حياة المجتمعات مرحلتين أساسيتين: الشيوعيَّة والاشتراكيَّة، لكنَّ هذه المرحلة الأخيرة تبتدئ مع نهاية أقلّ أو

أكثر قرباً [المرحلة الأولى]. إنَّها أيضاً الطريقة التي اندثر بها المجتمع الجيرماني-الروماني، وفي الفترة الراهنة نرى هذا الأمر من جديد يتبدَّى أمام أعيننا وفق العمليَّة نفسها.

-17-

تلك إذاً خلاصة الكتاب، في الواقع، فالمادة التي تنظم زمام الأمور تظهر بمستوى بسيط ـ باطنياً- لكن أكثر حدَّة واقعياً، لكي يكون من الممكن القيام بمناقشة معمَّقة لنظريات المؤلف. أريد فقط بيان النقط التي من الضروري أن يرتكز عليها النقاش.

-18-

مثل المؤلف، أعتقد أنَّ هناك نوعين رئيسين من المجتمعات والكلمات المستعملة لوصفهما تحمل الدلالة الكافية على طبيعتهما: من المؤسف أن تكون غير قابلة للترجمة [إلى اللغة الفرنسيَّة والعربيَّة أيضاً]. أوافقه القول إنَّ «Gemeinschaft» هي الحقيقة الأولى لـ «Gesellschaft» المشتقة منها. وأخيراً، أقبل الخطوط العامَّة لهذا التحليل والوصف الذي يعطيه لـ «Gemeinschaft».

-19-

لكنَّ النقطة التي اختلف معه فيها [السيد تونيس]، هي نظرية «Gesellschaft». فإذا فهمت جيداً أفكاره، فـ «Gesellschaft» يتميز بالتطوير التدريجي للفردانيَّة، في هذه الحال، «فعل» الدولة لا يمكن أن يستدرك إلا لفترة وجيزة وعبر تَصرفات مصطنعة للآثار الجانبيَّة، هي في الأساس مجموعة ميكانيكيَّة، وفي الواقع هي كلُّ ما تبقى من الحياة الجماعيَّة ومحصلة لدوافع خارجيَّة وليست عفويَّة داخليَّة. باختصار كما قلت سابقاً، إنَّه المجتمع الذي تصوَّره بينثام. أعتقد أنَّ حياة المستوطنات الاجتماعيَّة هي أيضاً طبيعيَّة على شاكلة التجمعات الصغيرة، إنَّها لا عضويَّة ولا داخليَّة، وبصرف النظر عن حركيات فرديَّة بحتة، هناك نشاط جماعي في مجتمعاتنا المعاصرة، وهو أمر طبيعي، كما أنَّه أقلّ انتشاراً في بعض المجتمعات. إنَّه نوع مختلف قطعاً، لكن بين هذين النوعين اللذين ينتميان إلى النوع نفسه، والمتنوعين كثيراً، ليس هناك اختلاف في طبيعتهما، وقد استغرق الأمر كتاباً كاملاً لإثبات ذلك، ولا يمكنني فقط اقتراح صياغة وجيزة للأمر. هل من المرجَّح أنَّ تتطور من الكينونة نفسها، فالمجتمع ينشأ بكونه عضوياً لينتقل إلى ميكانيكي محض؟ بين هاتين الطريقتين هناك حلٌّ لاستمرارهما، بحيث لا يمكن أن نتصور الكيفيَّة التي بموجبها يكون جزءاً من التطور نفسه. بهذه الطريقة يتمُّ التوفيق بين نظرية أرسطو ونظرية بنثام، وهي مجرَّد ازدواجية للأضداد. يجب الاختيار: إذا كان المجتمع فعل الطبيعة في أصلها، فإنَّه يظلُّ كذلك حتى نهاية مسيرته.

-20-

لكن على ماذا تتأسس الحياة الجماعيَّة؟ «Gesellschaft» لا تسعفنا الطريقة المتبعة من طرف الكاتب للإجابة عن هذا السؤال لكونها ذات جذور إيديولوجيَّة. وفي الجزء الثاني من كتابه على وجه الخصوص، حلَّل السيد تونيس مفاهيم طوّرت بشكل آلي المحتوى دون العودة إلى الوقائع. وكإجراء جدلي، نجد لديه تمايزات وتصنيفات متناظرة للمفاهيم المفضَّلة لدى المناطقة الألمان. والسبيل الوحيد لتحقيق ذلك هو «التفسير الاستقرائي»، بمعنى دراسة «Gesellschaft» من خلال القانون والأعراف التي تميزه وتمثل بنيته الجوهريَّة. لكن كيفما كانت تحفظاتنا لا يسعنا سوى الاعتراف بالقوة الحقيقيَّة للفكر في بناء هذا الكتاب.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2016

جميع الحقوق محفوظة © 2016